ملتقى الحديث النّبوي الشّريف في الدّراسات اللّغويّة والأدبيّة

يومي 25-26 أفريل 2018

جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة-

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

عنوان المداخلة: موازنة بين بلاغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشّريف

أ.د رابح دوب

مقدّمة:

لقد اهتمّ العرب بصناعة الكلام أكثر من صناعة قوّتهم لذلك تحدّاهم الله بأخصّ وأعزّ ما يملكونه وهو البيان، إذ أنّه عزّ وجلّ كلّما بعث رسولا أيّده بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه، فقوم موسى-عليه السّلام-برعوا في السّحر فبعث الله رسوله بمعجزة أبطلت كلّ سحرهم وهي العصا، وقوم عيسى-عليه السّلام-برعوا في الطّب فبعث الله رسوله بمعجزة لا قِبل للطّب بها وهي إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، أمّا قوم محمّد-صلى الله عليه وسلّم-(أي العرب) فقد برعوا في الخطابة والشّعر والبيان فبعث الله رسوله بمعجزة (القرآن الكريم) أبطلت تفوّقهم في البيان واللّسن.

لذلك قال أحمد شوقي: جاء النّبيّون بالآيّات فانصرمت ⁂ وجئتنا بكتاب غير منصرِمِ

آيـاتـه كلّمـا طـال المدى جُددٌ ⁂ يزيّنهنّ جمـال العتق والقِـدَمِ

أخوك عيسى دعا ميّتا فقام له ⁂ وأنت أحيّيت أجيالا من العَدَمِ

معجزة القرآن الكريم:

إنّ القرآن الكريم في حقيقة الأمر هو كتاب هداية مصداقا لقوله تعالى:﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾الإسراء 9، لكنّه في ذات الوقت هو دليل نبوّة سيّدنا محمد-صلّى الله عليه وسلّم-إذ تحدّاهم الله على مراحل: تحدّاهم أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا، وسجّل عليهم عجزهم، ثم نزل في التّحدّي وطالبهم بأن يأتوا بعشر سوّر مثله مفتريّات

فعجزوا، وسجّل عليهم عجزهم، ثم نزل معهم في التّحدّي إلى سورة واحدة ولو كانت أقصر سورة (الكوثر) فلم يستطيعوا، وسجّل عليهم عجزهم، ثم قرّر أنّهم في عجز مطلق فقال عزّ وجلّ:﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(23) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)**﴾ **البقرة 23/24.**

لقد تحدّى الله عامّة العرب وخاصّتهم وفيهم فرسان البلاغة وأرباب اللّسن فلم يستجيبوا لهذا التّحدّي بل حملوا السّلاح وقاتلوا وقتلوا ولم يحملوا الأقلام ليعارضوه، فلو كان بإمكانهم التّحدّي لفحلوا وكفّوا أنفسهم شرّ القتال.

لقد أدهش القرآن الكريم مشركي العرب بروعته وجماله، فلم يتمالك سادتهم وزعماؤهم من البلغاء والفصحاء أنفسهم أن يرسلوا القول فيه على السّجيّة العربيّة، فكان إقرارا عفويّا بريئا من التّكلّف بعيدا عن محاولة إنكار هذه الرّوعة. فقول الوليد بن المغيرة مشهور جدا: " إنّ له لحلاوة وإنّه يعلو ولا يُعلى عليه..." وكذلك فعل عتبة بن ربيعة عندما سمع القرآن الكريم.

كما تأمّل القرآن الكريم عرب أقحاح من الأسوياء البلغاء فأدركوا قدره وقيمته وأنّه لا يمكن أبدا أن يكون من كلام البشر فآمنوا به وبالنّبي الذي جاء به وعلى رأس هؤلاء أنيس الغفاري شقيق أبي ذر الغفاري الذي كان من كبار شعراء قومه، وقد سجّل لنا التّاريخ بعض المحاولات اليائسة في معارضة القرآن الكريم من مسيلمة الكذّاب، فكان أضحوكة بين العقلاء والأسوياء.

فصاحة الرّسول–صلّى الله عليه وسلّم–:

أكرم الله عزّ وجلّ رسوله محمدا –صلّى الله عليه وسلّم–فجعله أفصح العرب وآتاه جوامع الكلم ممّا جعل الجاحظ يسترسل في وصف بلاغته صلّى الله عليه وسلّم في كتاب البيان والتّبيّين منها قوله: " هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصّنعة، ونُزّه عن التّكلّف... استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقيّ. فلم ينطق إلّا عن ميراث حكمة ولم يتكلّم إلّا بكلام قد حُفّ بالعصمة وشُيّد بالتأيّيد ويسر بالتوفيق. وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة وبين الإفهام وقلّة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته وقلّة حاجة السّامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة ولا

زلّت له قدم ولا بارت له حجّة ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب..." وكلام الجاحظ في وصف بلاغة الرسول–صلّى الله عليه وسلّم–طويل جدا يشهد له بالفصاحة التي تفوق خطباء وبلغاء كلّ العرب، ففصاحته توفيقا من الله وتوقيفا، بعثه للعرب وهم ينقادون من ألسنتهم فلم يحتجّ عليه أحد منهم أو يستدرك عليه الألفاظ وهم مَن هم في البيان.

لكن على الرّغم من هذا فهناك بَون شاسع بين بلاغة القرآن الكريم التي هي معجزة وبلاغة الرّسول–صلّى الله عليه وسلّم–التي فاقت بلاغة فصحاء العرب.

الفرق بين أسلوب القرآن المعجز وكلام الرّسول:

إذا أمعنّا النّظر في كلامه–صلّى الله عليه وسلّم–أدركنا أنّ كلامه يفوق كلام البلغاء قاطبة، لكنّه لم يبلغ حدّ الإعجاز، فكلامه من جنس كلامهم، وقد يقع في كلامهم ما يشبه كلامه كما هو الحال عند كبار الصّحابة–رضوان الله عليهم أجمعين–فقد يلتبس الأمر في بعض الأحيان أهو حديث شريف أم هو قول مأثور من أقوال الصّحابة؟

أمّا نظم القرآن الكريم فقد جاء بعيدا كلّ البعد عن هذا الالتباس، فهو كلام من عالم الأمر لا من عالم الخلق لذلك تفطّن الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتاب (دلائل الإعجاز) وجعل نظم القرآن الكريم في الدّائرة المطلقة فدلالاتها لا متناهيّة ولا يمكن لعالم الخلق أن يحيط بها مهما كان الأمر، أمّا نظم حديث الرّسول الكريم فيأتي في الدّائرة الأعلى مع البَون الشّاسع بين نظم القرآن المعجز ونظم الحديث الشّريف الذي يفوق نظم كلام الأدباء والخطباء... فبلاغة القرآن تُراعي مقتفى الظّاهر والباطن، فالله عزّ وجلّ يراعي في خطابه المقام الظّاهر ومقتفى الملكات النّفسيّة الباطنة كما في قوله تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ 14**﴾ سورة الملك، وهذا ليس في مقدور أي مخلوق إلّا الخالق الذي يعلم كلّ ما في باطن الإنسان فيخاطبه على مقتضاها.

خلاصة القول هو أنّ القرآن معجز لا يمكن أبدا الإتيان بمثله، ولا يمكن أبدا التباس كلام المولى عزّ وجلّ على أي شخص يعرف اللّغة العربيّة، لذلك لم يحاول المغرضون التّدليس على آيّات القرآن مثلما دلّسوا في كثير من أحاديث الرّسول–صلّى الله عليه وسلّم–

الأستاذ رابح دوب